اليهود واليهودية وعلاقة هذين المصطلحين ببني إسرائيل

أ. حسين محمد سالم
قسم التاريخ- كلية الآداب –السواني
جامعة طرابلس

تمهيد:

لكل فكر مصطلحا ته الخاصة، التي يستخدمها للتعبير عن مقاصده، وتلخيص وتكثيف آرائه، وهو ما يجعل المصطلح غنيا بالمعاني، التي تتجاوز بكثير حدود كلماته، ومن الطبيعي أن تكون تلك المصطلحات التي تعود إلى فكر واحد، متناسقة مع بعضها، ويكمل الواحد منها الآخر، ودون هذين الشرطين يصير أي فكر خليط من التصورات، التي لا معني لها، ونسيج من الكلمات التي تخفي الحقيقة أكثر من العمل علي توضيحها، وإذا طبقنا هذه المعاني علي علم التاريخ كتابة وفهما، فأنه يتحول إلى قصة مشوشة، وركاما من الأحداث التي لا معني لها.

إن الفكر التوراتي كغيره، قد أمدنا بكثير من المصطلحات، في مجالات متعددة كالعقيدة والتاريخ، ومن بين المصطلحات التي يقدمها في إطار رؤيته التاريخية (بني إسرائيل واليهود والعبرانيين) التي يري أنها تختزل كل المعاني، المتعلقة بوجود الجماعة الإسرائيلية، ودورها في التاريخ وعلاقاتها بالآخرين، ويفترض وجود علاقة وثيقة بينها، إلى الدرجة التي يمكن التعبير بإحداها عن الأخرى، وهو يستعين في ذلك بالنصوص المقدسة لديه، كشاهد علي صدق دعواه، من خلال تفسيره وتأويله لها، حسب المنظور الذي إرتآه للتاريخ البشري عامة، ولتاريخ الشرق خاصة .

نتناول في هذا المبحث، مصطلح اليهودية واليهود، من حيث المعني والظهور التاريخي، وعلاقة ذلك بالوجود التاريخي للجماعة الإسرائيلية، حسبما يراه الفكر التوراتي، من جهة، وحسب الواقع، من جهة أخري .

أولا: اليهودية في اللغة :

يشير القرآن الكريم بطريقة غير مباشرة، إلى أن مصطلح اليهود، قد جاء في فترة تاريخية تعقب وجود النبي إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالي ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾ [1]، وهذه الآية تؤكد علي جملة من الاستنتاجات منها :

1- إذا أخذنا بالتقدير السائد لظهور إبراهيم عليه السلام، في حدود القرن الثامن عشر ق.م (وهو تقدير مستنتج من التوراة ولا يعتمد علي معطيات تاريخية) فإن معني ذلك عدم وجود جماعة دينية أو عرقية حملت هذا الاسم إلى ذلك العهد .

2 – إن مفهوم اليهودية في القرآن كان مفهوماً دينياً وليس عرقياً، ودليل ذلك أن الآية قد ذكرته مقترنا بالنصرانية، ونجد هذا المعني واضحا في آية أخري، وهي قوله تعالي "

وقالت اليهود ليست النصارى علي شيء، وقالت النصارى ليست اليهود علي شيء وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون "[2] فالجدل في هذه الآية كما هو واضح، كان بين طائفتين دينيتين، حول صحيح العقيدة . والواقع أن كل الآيات القرآنية التي يرد فيها هذا المصطلح ومشتقاته اللغوية، يؤكد هذا المعني .

3 – إن تعبير النصرانية يحمل في طياته نفيا لفكرة كون المسيحية ديانة إسرائيلية، كما يعتقد أتباع هذه الديانة، اعتماداً علي نسب السيد المسيح إلى بني إسرائيل [*] .

آما من حيث اللغة فنجد في " مختار الصحاح " قوله : " قال أبو عبيدة : التهود : التوبة والعمل الصالح، وتهود أي صار يهوديا واليهود بوزن العود أي اليهود"[3] ومعني ذلك أن اليهودي هو الإنسان التائب الصالح، دون النظر إلى أصله، وقيل إن أصل اللفظة يعود إلى يهودا بن يعقوب، ويقال " تهود" أي دخل في دين اليهود وهود الرجل ابنه أي ادخله في دين اليهود[4]. ومصداق ذلك ما روي عن الرسول صلي الله عليه وسلم " يولد الإنسان علي الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه "[5] فجمع اليهودية مع النصرانية والمجوسية وهما فرقتان دينيتان كما نعلم، وقوله كذلك " والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي أو نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار"[6]، وهذا الحديث واضح في دلالته علي أن اليهود في العصر النبوي، كانوا جزءا من هذه الأمة، مثل النصارى، ولن يجادل أحد هنا بالقول إن الأمة التي يعنيها الرسول صلي الله عليه وسلم، هي أمة الإسلام، لأنه لو كان الأمر كذلك، ما كان ليدعوهم إلى الأيمان به .

يري بعض الباحثين إنْ التسمية وان كانت تعود إلى "يهودا" ابن يعقوب إلا أنها تحمل دلالات دينية، فهذا الاسم يعود إلى الجذر اللغوي "ودي" بمعني الاعتراف والإقرار والجزاء، وأضيفت إليها "يهو" بمعني الرب فصار معناها شكر الرب[7]، ويؤكد ذلك ما

جاء في سفر التكوين علي لسان أم يعقوب بعد أن رزقت به " هذه المرة أحمد الرب لذلك، ودعت اسمه يهودا "[8].

نخلص مما سبق إلى أننا بين رأيين حول أصل هذا المصطلح، وهما الرأي الذي يعتقد إن التسمية تحمل بعداً عرقياً يشير إلى نسب اليهود كجماعة بشرية متميزة، ورأي آخر يري أن المصطلح ذو صبغة دينية عقائدية، شملت وتشمل كل من يعتنق هذا الفكر الديني، دون اعتبار لأصله، ويمكن للباحث أن يرجح الرأي الثاني استنادا إلى الحجج الآتية :

1 –إن التسمية لم تعرف بين اليهود إلا بعد عودتهم من "الأسر البابلي "[9]، والمعلوم أن البابليين الذين اجتاحوا منطقة الشام كلها، لم يحملوا معهم اسري، سوى هذه المجموعة التي تنتمي إلى اليهودية، ولا نستطيع أن نجد تفسير لذلك، سوي أن هذه المجموعة كانت الوحيدة التي تمتلك فكرا دينياً، مختلفا عما كان سائداً.

2 – مما يقوي هذا الاستنتاج كون التوراة وهي أقدم وثيقة وردت فيها التسمية، قد بدأ تدوينها أثناء "الأسر البابلي"، وذلك يعني أن مدوني التوراة قد استخدموا المصطلحات التي كانت سائدة في تلك المنطقة، للإشارة إليهم .

3 – إن القرآن وهو اقوي الحجج من الناحية اللغوية، في تفسير المصطلحات العبرية، لأن لسانه العربي يعد تاريخياً الأقرب إلى اللغة العبرية، يشير صراحة إلى هذا المعني، ومن شواهد ذلك:

أ – إن اللفظة قد وردت في معظم المواضع مقترنة مع جماعات دينية، كالنصارى والمجوس والمشركين .

ب – إنها قد وردت في مجال التشريع، " وعلي الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر "[10] والمعلوم أن التشريع يتوجه إلى المؤمنين به، وليس إلى جنسهم، فشريعة الإسلام لا تخص العرب، ولكنها تتوجه إلى من اعتنق الإسلام منهم .

ج –إن اللفظة وردت عند الإشارة إلى المعتقدات الدينية، مثل قوله تعالي :﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾"[11]

د – إن اللفظة قد وردت عند الحديث عما اصطلح بتسميته (الديانات السماوية الثلاث)، في قوله تعالي : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ ﴾"[12]، وقد حملت هذه الآية أيضا إشارة إلى فرقتين هما الموحدين والمشركين، وقد وضعت اليهود في خانة الموحدين .

هـ – إن اللفظة قد وردت في باب الإشارة إلى أعداء الرسول، ﴿ ولن ترضي عنك اليهود ولا النصارى حتي تتبع ملتهم ﴾"[13] والمعلوم أن أشد أعداء الرسول، كانوا من المخالفين له في العقيدة وليس في الأصل، والدليل علي ذلك أنهم كانوا من أقرب الناس إليه، وهم عشيرته وقبيلته . وتشير هذه الآية إلى أن اليهود لم يرضوا عن محمد لأنه لم يتبع ملتهم، وليس لكونه لم يكن منهم .

إن تتبع اللفظة كما وردت في القرآن الكريم تشير كلها إلى المعني الذي نقصده، ولذلك لا نري ضرورة الإشارة أليها كلها .

ثانيا: ظهور وتطور المصطلح

ليس لدينا في وثائق تاريخ الشرق القديم المتوفرة الآن، ما يشير صراحة أو ضمنا، إلى مصطلح " اليهودية" إلا إذا اعتبرنا التوراة وثيقة تاريخية، وعلي هذا الاعتبار، يمكننا أن نقول إن المصطلح قد ظهر خلال الفترة الآشورية، التي ترتبط بما تسميه التوراة" السبي البابلي" حيث تذكر إن ملوك بابل قاموا بنقل اليهود سبايا إلى بابل[**]، والمعلوم من تاريخ الشرق الأدنى القديم، إن صراعا عنيفا قد دار بين الدولتين الأشورية والمصرية، كان ميدانه الرئيس منطقة الشام، حيث أراد كل طرف من أطراف الصراع

السيطرة عليها، وقد بدأ ذلك منذ عهد الملك الأشوري " شلمنصر الثالث" 859-842.ق.م، حتي عهد " نبوخذ نصر الثاني" 605- 562.ق.م، [14] وقد انحازت بعض مدن الشام إلى مصر في هذا الصراع، مما جعل الأشوريون ينتقمون منها، وينقلون بعض سكانها إلى بابل، وعلي سبيل المثال تذكر مصادر الملك " شلمنصر" أنه أسرَّ 200 رجل وعاد بهم إلى عاصمته، أما أعنف الحملات علي بلاد الشام، فهي تلك التي قام بها الملك " نبوخذ نصر "احد ملوك الدولة البابلية الجديدة، والتي تكررت عدة مرات(**) وكانت بعضها موجهة إلى مدينة القدس، وعاد منها بعدد من الأسري إلى عاصمته(***) والمعلوم انه لا يوجد في المصادر التي تعود لعهده، أية إشارة إلى جنسية أو ديانة هؤلاء الأسري، والقول بأنهم إسرائيليين إنما يعتمد علي ما ورد في التوراة دون غيرها[15]، ومن هنا ظهر مصطلح " السبي البابلي" الأول والثاني.

يتفق معظم الباحثين علي أن بدء تدوين التوراة، وقع أثناء وجود اليهود في بابل، ولأن التوراة هي أول مصدر مكتوب ذكر فيه مصطلح اليهود، عليه فمن المعقول أن نعيد بداية استخدامه إلى ذلك العهد . إن بداية تدوين هذا العمل الديني والثقافي والتاريخي في بابل، يشير إلى قدر كبير من النضج المعرفي والثقافي، وقدر واسع من الحرية الدينية، وهو ما يعني أن وضع هؤلاء الذين دونوا التوراة، لم يكن وضع " السبايا" والعبيد، بل كانوا ينتمون إلى طبقة مثقفة، تمتلك قدراً عالياً من الحس الأدبي والتاريخي، لم يتوفر لهم طيلة العهود الماضية التي تفصل بين نزول التوراة علي موسي، حتي سقوط مملكتي الشمال والجنوب أو مملكتي يهودا والسامرة اللتين قامتا علي أنقاد مملكة سليمان الموحدة بعد وفاته، (****) وكل هذا يدفعنا إلى استبدال مقولة " السبي البابلي" بالترحيل" إلى بابل باعتبار كونه عملاً احترازياً لتأمين الدولة لا أكثر، وهو عمل يتكرر في جميع العهود

والدول، ولم يكن كما يصوره الفكر التوراتي عملاً همجياً عنصرياً موجها "للأصل اليهودي"، ويرتبط بهذا الاستنتاج الدعوة إلى إعادة النظر في الفكرة السائدة عن البابليين والآشوريين بأنهما كانا مثالاً للشر والتسلط والقمع والروح العسكرية القاسية التي لا ترحم" وكأن ذلك الشعب وتلك الدولتان كانا " نموذجا فريداً للطغيان" في تاريخ الشرق القديم والعالم، لا لشيء سوي أنَّ بعض القادة المنتصرين منهم، قاموا بنقل مئات أو آلاف من أعدائهم المهزومين من ديارهم إلى آماكن سكن أخري(*****)، وهو الأمر الذي لم يفعله أتباع اليهودية، في حروبهم التي لا تنتهي مع خصومهم، والتي تفيض بها صفحات العهد القديم، لأنهم كانوا ببساطة لا يتركون في مدن وقري أعدائهم بعد هزيمتهم، إنساناً أو حيواناً أو شجراً أو مصدر مياه، حتي أن رجلاً واحداً منهم وهو " شمشون " قتل ألف فلسطيني دفعة واحدة وبفك حمار، "[16] ويمكننا أن نصدق ذلك إذا افترضنا أنَّ هؤلاء كانوا أسري مقيدين، لا يملكون قدرة للدفاع عن أنفسهم، ضد هذا الموت الذي يأتيهم بهذه الطريقة البدائية، ويتكرر هذا العمل " البطولي " مع " يشيب" الذي قتل برمحه ثمانمائة فلسطيني[17]، و "شمجر بن عناة" الذي قتل بفك بقرة ستمائة فلسطيني[18]، "ويشبعام" بن حكموني الذي كان نصيب رمحه مئة فلسطيني فقط [19]، وكل هؤلاء الضحايا كانوا يقتلون دفعة واحدة. وسوف نستعرض هذا الموضوع بتفصيل أكثر في فصل لاحق.

ان المرحلة الثانية المهمة في شيوع هذا المصطلح تبدأ مع ضعف الدولة البابلية الجديدة، التي بدأت شمسها بالمغيب، مما أطمع فيها جيرانها الفرس، الذين أعلنوا الحرب عليها، وقد لجأ هؤلاء إلى التحالف مع الساخطين عليها من الداخل، فكان أول المستجيبين لذلك هم اليهود، ومع انتصار الفرس في هذه الحرب وزحفهم حتي منطقة الشام قاموا بإعادة هؤلاء اليهود المتحالفين معهم إلى ديارهم الأصلية، وبهذا التحالف صار هؤلاء فئة متميزة تحت رعاية الحكم الفارسي .

خرج هؤلاء أسرى وعاد بعضهم وهم يحملون وثيقة تاريخية، كتبوها بأيديهم، ومنحوا فيها لأنفسهم تسمية جديدة، أعادوا من خلالها صياغة التاريخ السابق بما يتلاءم مع ماورد في نصوص تلك الوثيقة .

كان التطور الثالث المهم للمصطلح، قد بدأ مع النصف الأول للألف الأولي قبل الميلاد، هذه الفترة التي شهدت تغييرا كبيرا في موازين القوي، في منطقة الشرق الأدنى القديم كله، حيث بدأت الحضارات النهرية الكبرى، التي شغلت تاريخ هذا الشرق، بالانهيار أمام ضربات قوي جديدة، من أهمها القوة الفارسية، التي تعاظم شأنها تدريجيا علي حساب جيرانها ' حتي استطاع " قورش الثاني " أن يضع آخر مسمار في نعش الحضارة الرافدية، عندما كسب صراع قومه المرير مع البابليين، ويحتل مدينة بابل عام 539ق.م[20]، ومن ثم سماحه للمرحلين بالعودة إلى الأماكن التي جاءوا منها.

ويمكن القول أن هذه اللحظة تعد اخطر مرحلة في تاريخ الشرق القديم كله، فقد بدأت معها العادة صياغة ذلك التاريخ منذ بداياته الأولي، تحت وصاية نص واحد فقط، وضع خارج شروط النقد التاريخي الموضوعي، عندما ألبس ثوب القداسة، باعتباره نصا دينياً موحى به ولا يقبل الشك، ومما ساهم في تأكيد سيادة هذا النص ما يلي :

1 – ظهور المسيحية في القرن الأول الميلادي، ومن ثم بداية انتشارها العالمي، عندما اعتنقتها بعض الشعوب الأوربية، التي صارت كياناتها السياسية، هي المحرك والصانع لتاريخ العالم، حيث أن الفكر الديني المسيحي الذي نسب المسيح إلى اليهود، رأي في التوراة، بل في العهد القديم كله، المصدر الوحيد والحقيقي الذي يجب أن نستقي منه تاريخ البشرية القديم .

2– انقطاع المصادر التاريخية الأصلية للشرق، مع سقوط كياناته السياسية الكبرى، واضمحلال لغاته القديمة، وقد استمر هذا الوضع حتي بدايات القرن التاسع عشر

الميلادي، عندما تطور علم الآثار وبدأ يزيل الغبار والركام علي معالم الشرق الحضارية، من خلال الاهتمام بالتنقيب الأثري، وإعادة إحياء وفهم لغات الشرق القديم، ذلك الأمر الذي وضع الفكر التوراتي كله أمام امتحان تاريخي عسير، فشل إلى حد الآن في تجاوزه لإثبات مصداقيته.

3- لقد كان من الممكن تصحيح هذا الانحراف، في فهم تاريخ الشرق، من خلال الفرصة التي لاحت في القرن السابع الميلادي، عندما ظهر الإسلام، وتحول إلى كيان سياسي كبير، ترعرعت تحت لوائه مختلف العلوم، ومن بينها علم التاريخ، الا ان العقلية الدينية المتحمسة التي نشأ في ظلها هذا العلم أوقعته في اسر الموروث التوراتي، مما حرمه، - رغم جهود الكثير من رموزه -، من تجاوز النص التوراتي، بل أنه ساهم ولو بطريقة غير مقصودة في تأكيد التصورات التوراتية، وهو ما يلاحظه أي قارئ للمدونات التاريخية الإسلامية مما لا مجال لذكره هنا .

لقد أسهمت هذه التطورات في أغرب عقد قران "كاثوليكي" بين اليهودية وبني إسرائيل، بحضور شاهد وحيد هو التوراة .

هوامش البحث :

1- سورة آل عمران، الآية: 67.

2 - البقرة، آية: 113.

*- انظر في ذلك ص : 11 من هذه الدراسة.

3- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، المطبعة الكلية بمصر، 1329 هـ، مادة هود.

4- احمد بن محمد بن علي المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ؟، ؟، مادة هود

5-أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، ، صحيح مسلم، ج1، دار الشعب، القاهرة، 1967م، ص70.

6- المصدر نفسه، ص367. انظر كذلك: ابن كثير، شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه، القاهرة، 1967م، ص 340.

7- عبد الوهاب ألمسيري، اليهود واليهودية والصهيونية، ج 2، (http://www.al-mostafa.com)، ص 304.

8- سفر التكوين، إصحاح 29، الآية: 35

9- كيت وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، ترجمة: سحر الهنيدي، سلسلة عالم المعرفة، العدد 249، دولة الكويت، سبتمبر 1999م، ص172، هامش 3.

10- سورة الأنعام، الآية 146.

11- سورة التوبة الآية 30.

12- سورة آل عمران، الآية 67.

13- سورة البقرة، الآية 120.

**- يقول سفر الملوك الثاني، الإصحاح 16 الآية 6: " في ذلك الوقت ارجع رصين ملك آرام أيله للآراميين، وطرد اليهود من أيله"

14- فوزي محمد حميد، حقائق وأباطيل في تاريخ بني إسرائيل، ط1، دار الصفدي، دمشق، 1999، ص 33-36.

***- حول الصراع المرير بين الآشوريين ومصر، علي مناطق النفوذ في سوريا، في ذلك الوقت انظر: مصطفي كمال عبد العليم، اليهود في مصر في العهد البطلمي والروماني، ط1، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، 1968م، ص 4.

****- هناك اضطراب واضح لدي كتبة التوراة حول عدد هؤلاء الأسري، فهي تشير في موضع إلى أنهم "10000" آلاف، سفر الملوك الثاني، ا صحاح 23، الآيات 14 – 16، بينما هم "3023" في سفر ارميا، إصحاح 42، آية 28، وهذا الاختلاف الكبير في الرقم يثير الشك في مصداقية القصة برمتها.

15- محمد بيومي مهران، مرجع سبق ذكره، ج 3، الحضارة، ص34.

***** - يذكر المؤرخ أبو الفداء أن الملك "بخت نصر" قد سمي بهذا الاسم لتقريبه الحكماء والعلماء وحبه لأهل العلم، وحيث أن الطوائف الدينية ورجال الدين، كانوا ولا يزالون يعدون من أهل العلم فلا نستبعد هنا انه قد قرب إليه أولئك المرحلون اليهود، الأمر الذي مكنهم من انجاز أو بداية العمل في تدوين التوراة كشكل من أشكال العلم . انظر أبو الفداء، مصدر سبق ذكره، ص43.

****** - تشير المصادر التاريخية إلى أن البابليون قد اسكنوا هؤلاء المرحلين في أخصب المناطق الزراعية، مثل منطقة " نيبور" ومنحوا أوسع الحريات في العمل وممارسة شعائرهم الدينية، حتي ان " دانيال" كان من المقربين من " نبوخذ نصر" . انظر في ذلك : سفر دانيال الأول، إصحاح 1، وفيه إشارات واضحة إلى مركز أولئك المرحلين بالنسبة للملك، واستشارته لهم.وكذلك : جودت السعد، أوهام اليهودية، مرجع سابق، ص 170.

16- سفر القضاة، إصحاح 15، الآيات 14- 160.

17- سفر صموئيل الثاني، أصحاح 23، الآية 8.

18- القضاة، إصحاح 30، الآية 13.

19- الأيام الأول، إصحاح 11، الآية 11.

20- محمد أبو المحاسن عصفور، معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم من أقدم العصور إلى مجيء الإسكندر، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، د.ص410.